النكتة البلاغية في الحديث النبوي الشريف

Rhetorical Deduction in the Prophetic hadith

ط/د إبراهيم جغوبي

قسم اللغة والأدب العربي- كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، (الجزائر)

bassat1869@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/07/07 تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص:

يتناول هذه البحث "النكتة البلاغيّة في الحديث النبوي الشريف" دراسة وصفية تحليلية، بحيث تقوم الدراسة على تحليل نماذج لبعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تبرز فيها مهارة اللغة العربية في استيعاب النص الحديثي ومسايرة بلاغته.

نحاول في هذه الورقة تحليل بعض النكت البلاغية الواردة في الحديث النبوي،بدءًا من الحديث عن بلاغة الرَّسول - عليه الصَّلاة والسَّلام - وأسباب هذه البلاغة، وما تهيَّأ له من صفات رسمت أسلوبه وطابع حديثه، إلى فنون قوله، وخصائص بلاغة ذلك القول.

والسؤال الرئيس في هذا البحث هو: ما الوسيلة المثلى التي يمكن أن نصل عن طريقها إلى فهم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلّم، فهماً عميقاً، وتذوق أسلوبه وخطابه الذي البارع الرفيع البليغ؟ و الفنون البلاغية المختلفة التي تكمن خلف هذا الأسلوب الرائع، ومن أجل ذلك، جاء هذا البحث ليحقق هذا الهدف، أمّا المنهج المتبع في هذا البحث، فهو المنهج الاستقرائي، والتحليلي.

الكلمات المفتاحية: النكتة البلاغية، الحديث النبوي، البلاغة، أسلوب، تأثير، جمالية.

Abstract:

This research deals with "Rhetorical deductions in the Prophet's Hadith".It is a descriptive and analytical study that is based on analyzing examples of some of the

hadiths in which the skill of the Arabic language is highlighted in comprehending the hadith text and coping with its rhetoric.
In this paper, we try to analyze some of the rhetorical deductions contained in the Hadith of the Prophet, starting with the discussion of the rhetoric of the Messenger - peace be upon him- and the reasons behind this rhetoric, as well as the qualities that builds his style and speech, ending by the characteristics of this rhetorical speech.
The main question in this study is: What is the best way through which we can reach a deep understanding of the Hadiths of the prophet - peace be upon him - and experiencing his rhetorical speech? And the various rhetorical arts that lie behind this great method, and for that, this research is aiming to achieve this goal, as for the method used in this research, it is the inductive and analytical approach.
Key words: Rhetorical deduction, Prophetic hadith, Rhetoric, style, Effect, Aesthetic.

تقديم:

إن أجلَّ الكلام بعد كلامِ الله تعالى كلامُ خاتم أنبيائه محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وسنَّته هي المصدر الثَّاني للتَّشريع، وقد جاءت مبيِّنة لما في القرآن الكريم من أحكام؛ ففصَّلت مجمله، وقيَّدت مطلقه، وخصَّصت عمومه، ووضَّحت مشكله. وليس غريبًا أن يوليها المسلمون عنايةً خاصةً، بدأت بتدوين الحديث الشَّريف، واستنباط الأحكام منه والآداب، إلى غير ذلك من جوانب العناية.

ومنها - أي جوانب العناية بالحديث الشَّريف - الوقوف على أسراره البلاغيَّة، وهو ما نحاول في هذا البحث أن نحيط بشيءٍ منه، بدءًا من الحديث عن بلاغة الرَّسول - عليه الصَّلاة والسَّلام - وأسباب هذه البلاغة، وما تهيَّأ له من صفات رسمت أسلوبه وطابع حديثه، إلى فنون قوله، وخصائص بلاغة ذلك القول.

وقد حوت أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، صنوف البلاغة، وألوان الجمال والفصاحة، وكانت من أبرز مظاهر عظمته، وأبرز دلائل نبوته، وعبرت أدق تعبير عن سمو نفسه، صلى الله عليه وسلم، وأبانت عن المنبع العذب الذي نهلت منه. وقد تبارى العلماء والبلغاء في وصف فصاحته، وما امتاز به كلامه، صلى الله عليه وسلم، من جمال وبلاغة جعلته يتربع على قمة

الأساليب البشرية. ومن أفضل ما قيل في ذلك ما سجله الجاحظ رائد البلاغة العربية حيث يقول: "وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف... واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي. فلم ينطق إلا عن ميراث حكمته، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه، صلى الله عليه وسلم، كثيرا.[1]

وفي هذا البحث سنتناول وجها من أوجه البلاغة النبوية، وهو ما يتمثل في استعمال النكتة البلاغية أو البيانية.

و للتطرق لهذا الموضوع قسمنا البحث إلى محورين: المحور الأول نظري تعريفي نتطرق فيه إلى تعريف العديد من المصطلحات الواردة في عنوان البحث و المتعلقة بمضمونه أيضا، وهو معنون بمفاهيم و تعريفات. أما المحور الثاني فهو محور تطبيقي، وفيه نتطرق إلى عرض أمثلة عن النكت البلاغية الواردة في بعض الأحاديث النبوية نظرا لاستحالة الإلمام بجميع التطبيقات الواردة في السنة النبوية كلها في هذا البحث الوجيز.

أولا: مفاهيم و تعريفات

1. الأسلـــــوب:

يطلق الأسلوب في لغة العرب إطلاقات مختلفة فيقال للطريق بين الأشجار وللفن وللوجه وللمذهب وللشموخ بالأنف ولعنق الأسد ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضا وأنسب هذه المعاني بالاصطلاح الآتي هو المعنى الأخير أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد[2].

الأسلوب في الاصطلاح: تواضع المتأدبون وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك[3].

2. البلاغـــــــة:

البَلاغةُ لغةً: مصدر (بَلُغَ الرَّجُلُ) الضَّم: إذا صَارَ بَلِيغًا[4].

وَرَجُلٌ بَلِيغٌ حسَنُ الْكَلَامِ فَصِيحُه يُبَلّغُ بِعِبَارَةِ لِسَانِهِ كُنْهَ مَا فِي قَلْبِهِ.[5]

قال أبو هلال العسكري: (وهي إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صور)[6]

وقال الرومي: (البلاغة هي الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة)[7]

وقال الفارسي: (البَلَاغَةُ معرفة الفصل من الوصل)[8]

وقيل البَلاغةُ فِي الْكَلَام: مطابقته لمقْتَضى الْحَال مَعَ فَصَاحَته.[9]

البلاغة في الاصطلاح :

البلاغة هِيَ التَّعْبِير عَن الْمَعْنى الصَّحِيح لما طابقه من اللَّفْظ الرَّائِق من غير مزِيد على الْمَقْصد وَلَا انتقاص عَنهُ فِي الْبَيَان، فعلى هَذَا فَكلما ازْدَادَ الْكَلَام فِي الْمُطَابقَة للمعنى وَشرف الْأَلْفَاظ ورونق الْمعَانِي والتجنب عَن الركيك المستغث كَانَ بلاغته أَزِيد[10].

وقال السكاكي: (بلاغةُ المتكلّمِ بُلُوغه فِي تأدية الْمَعْنى حدا لَهُ اخْتِصَاص بتوفية خَواص التراكيب حَقّهَا، وإيراد أَنْوَاع التَّشْبِيه، وَالْمجَاز، وَالْكِنَايَة على وَجهِهَا)[11]

وَقيل: (بُلُوغه فِي كَلَامه لعبارة كنه مُرَاده مَعَ إيجاز بِلَا إخلال، وإطالة بِلَا إملال، وَقيل: ملكة يقتدر بهَا على تأليف كَلَام بليغ)[12]

3. النكت البلاغيـــــــة:

النكتة في اللغة[13]: ن ك ت، نكتة. النكتةُ اسم و جمعها: نُكُتات و نُكْتات و نِكات و نُكَت. وهي:

- النُّكْتَةُ : الأَثَرُ الحاصلُ من نَكْتِ الأَرض.
- النُّكْتَةُ : النُّقْطَةُ في الشيء تخالف لَوْنَه.
- النُّكْتَةُ : العلامةُ الخفيَّة.
- النُّكْتَةُ : الفكرةُ اللطيفة المؤثِّرَة في النفس.
- النُّكْتَةُ : المسأَلةُ العلميَّةُ الدَّقيقةُ يُتَوصَّلُ إِليها بدقَّة وإِنعامِ فِكْر.
- النُّكْتَةُ : شِبْهُ وسَخٍ في المِرآة أَو السَّيف.
- النُّكْتَةُ : شِبْهُ وَقْرَةٍ في قَرْنيَّةِ العين، يسميها العامة : نقطة.
- مليح **النُّكتة** : يرسل **النُّكتة** من بديهة حاضرة.

و في لسان العرب : (النَّكت : أن تنكت بقضيب في الأرض فتؤثر بطرفه فيها ، وفي الحديث فجعل ينكت بقضيب أي يضرب الأرض بطرفه. ابن سيده : النكت قرعك الأرض بعود أو بإصبع . وفي الحديث: بينا هو ينكت إذ انتبه، أي: يفكر ويحدث نفسه. وأصله من النكت بالحصى ، ونكت الأرض بالقضيب وهو أن يؤثر فيها بطرفه فعل المفكر المهموم ، وفي حديث عمر . رضي الله عنه . دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى أي يضربون به الأرض)[14]

ويقول صاحب دستور العلماء : (النكتة : هي مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر أو إمعان فكر وبعبارة أخرى هي الدقيقة التي تحصل بإمعان النظر سميت بها لتأثيرها في النفوس ، من نكت في الأرض إذا ضربها بقضيب أو اصبع ونحوهما فأثر فيها . أو لأن حصولها بحالة فكرية شبيهة بالنكت في الأرض ، أو لأنّ النكت غالبا مقارن بالفكر وهي إن كانت موجبة للانبساط والنشاط تسمى لطيفة)[15]

وفي تاج العروس قال : (ونقل شيخنا عن الفناري في حاشية التلويح : النكتة هي اللطيفة المؤثرة في القلب ، من النكت ، كالنقطة من النقط ، وتطلق على المسائل الحاصلة بالنقل المؤثرة في القلب ، التي يقارنها نكت الأرض غالبا بنحو الإصبع)[16].وقال صاحب الكليات : (هي الدقيقة التي تستخرج بدقة النّظر إذ يقارنها غالباً نكت الأرض بإصبع أو غيرها ، وفي حاشية الكشاف : ونُكَت الكلام أسراره ولطائفه لحصولها بالتفكر، ولا يخلو صاحبها غالباً من النكت في الأرض بنحو الإصبع، بل بحصولها بالحالة الفكرية المشبهة بالنكت)[17]

و النكتة البلاغية هي التي تختص بالمعاني الدّقيقة الخاصّة التي تُستنبط بإمعان الفكر والنّظر وتكون منقّحة ومؤثّرة في النّفس.[18]

يقول صاحب الكليات: (قال البيضاوي:هي طائفة من الأحكام منقحة مشتملة على لطيفة مؤثرة في القلوب. وقال بعضهم: هي طائفة من الكلام تؤثر في النفس نوعاً من التأثير قبضاً كان أو بسطاً . وفي بعض الحواشي : هي ما يستخرج من الكلام ، وفي بعضها هي الدقيقة التي تستخرج بدقة النظر)[19].

وإذا كان البيضاوي اعتبر النكتة حكما ، فإنّ ذلك لا يتعارض مع اعتبار غيره أنّها كلام. ذلك لأنّ البيضاوي أصوليّ وفقيه والأصوليون يعبّرون عن المعاني بالأحكام ، والمعنى المستنبط عند

الأصوليين من نصوص الشرع . الكتاب والسنّة . يستلزم أن يتحوّل أحكاما في حقّ المكلفين، مع الإشارة إلى أنّ من اعتبر النكتة كلاما ، يقصد بذلك المعنى وهو من باب التعبير باللاّزم عن الملزوم.[20]

ثانيا: النكت البلاغية في السنة النبوية

الحديث عن بلاغته عليه الصَّلاة والسَّلام يبدأ من الحديث عن أسبابها، وأوَّلها :توفيق الله وإلهامه له، وقد علَّمه الله ما لم يكن يعلم، فلا يعيا بقومٍ إذا بادروه، ولا يحصر إن سألوه، ويحدِّثهم كما لو أنَّه منهم؛ لتقوم به الحجَّة، ويتضح برهان رسالته، وتكون بلاغته ميزة له عن سائر العرب.[21]

فهذا سبب، وأما الثَّاني :فقوَّة فطرته واستمرارها وتمكُّنها، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - يصرِّف اللُّغة ويديرها على أوضاعها ويشقُّ منها أساليبها ومفرداتها على نحو لم يكن للعرب منه إلَّا القليل، وهذه الصِّفات لا تكون في أهل الفطرة عن مزاولةٍ ومعاناةٍ بل تعين عليها النَّفس المجتمعة والذهن الوقَّاد، والبصيرة النَّافذة، وليس في العرب من جمع هذه الصفات غير رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم-، فقد اصطنعه الله لوحيه، وخصَّه برسالته، وأنزل عليه كتابه، فكان أهلًا لهذه الفطرة الخالصة[22].

وأما ثالث الأسباب :فعائد إلى نشأته، فقد تقلَّب - عليه الصَّلاة والسَّلام - في أفصح القبائل، "فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوَّجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار"[23].

وقد أقرَّ له بذلك فصحاؤهم، فما دخلتهم له حميَّة ولا تعاظمهم، ولو كان فيهم من هو أفصح منه لعارضوه به.[24]

وهذه الأسباب التي سلفت هي تمييز لكلام الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- عن كلام غيره من البشر من وجوه عدة، أبرزها: بُعدُ كلامه - عليه الصَّلاة والسَّلام - عن آثار التكلف والصَّنعة، فقد كان للعرب في جاهليَّتهم حكم يظهر فيها تقعُّر الصِّناعة أكثر من اجتماع المعنى وبروزه، ومن ذلك هذا الفرق الذي نلحظه بين قول العرب: "التَّوبة تمحو الحوبة"، وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : "الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا"[25]، ففي المقولة العربيَّة يلفتنا الجناس الناقص بين (التوبة) و(الحوبة)، وتجاور الحائين في كلٍّ من (تمحو) و(الحوبة) أكثر من ولوجنا إلى عمق المعنى،

بينما تجد في كلام الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام صياغة محكمة الألفاظ مسوقة عن عفو الخاطر، تيسِّر للذهن بلوغ شِغاف المعنى المراد دون جهد[26].

ومما يميّز كلام الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام-: أنَّه لا يدخله الباطل، ولا يتخلَّل اللَّغو معناه فقد "صاغ لسان النبوَّة ألفاظه وتنزَّل وحيًا من السَّماء معناه"[27]، وهذا سرٌّ من أسرار سموِّه وشرف مكانته.

ومن صور النكت البلاغية في الحديث النبوي أن الرَّسول - عليه الصَّلاة والسَّلام - أبدع جملًا لم يسبقه العرب إليها، ولم يتَّفق لأحدٍ مثلها في براعتها وحسن بيانها، ومن ذلك قوله - عليه الصَّلاة والسَّلام -: "مات حتف أنفه"، "وقوله في الحرب: "الآن حميَ الوَطِيس"، وقوله "بعثت في نفس السَّاعة"[28]

ويعضِّد هذه السِّمات الكلاميَّة ما تميَّز به الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- من سمات في أدائه الكلاميّ، وهي نوعان: سمات خَلْقِيَّة، وأخرى خُلُقيَّة. فالأولى منها: أنَّه كان -عليه الصَّلاة والسَّلام- ضليع الفم؛ أي يستعمل جميع فمه إذا تكلَّم، ولا يكتفي بتحريك الشَّفتين، ويفتح الكلام ويختمه بأشداقه، و"كانت العرب تتمادح بسعة الفم وتذم بصغره، لأن السعة أدلّ على امتلاء الكلام، وتحقيق الحروف وجهارة الأداء وإشباع ذلك في الجملة"[29]، وكان - عليه الصَّلاة والسَّلام - خاليًا من عيوب النطق الخَلْقيَّة، كالتمتمة والفأفأة وغيرها، ومن صفاته الخَلْقيَّة: حُسْن صوته، ولا ريب أن اللُّغة العربيَّة -خاصة- تحسُن بالصوت على نحو لا تحسن به سائر اللُّغات؛ نظرًا لطبيعتها الموسيقيَّة التي تقتضي خفَّة الوزن، وتساوي الكلام واعتداله.[30]

أما السِّمات الخُلُقيَّة، فمنها ما قالته عائشة -رضي الله عنها: "مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْرُدُ سرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إليه"[31].

وقولها: "كَانَ رُسُولُ الله -صلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عدَّهُ العَادُّ لَأَحْصَاهُ "[32].

ومنها أنَّه كان لا يتكلَّم بغير حاجة، طويل السُّكوت، ويتكلَّم بجوامع الكلم فضلًا لا فضول فيه ولا تقصير.[33]

ومن أجلى صفاته الخُلُقيَّة التي هي من صميم بلاغته -عليه الصَّلاة والسَّلام- مراعاته لمقتضى الحال. وقد "عَرَّف بعض البلاغيِّين (الحال) بأنه: "الأمر الذي يدعو إلى التكلُّم على وجه مخصوص، بحيث يكون للكلام خصوصيَّة زائدة على أصل المراد، وهذه الخصوصيَّة هي مقتضى الحال.[34]

ومن مظاهر مراعاته -عليه الصَّلاة والسَّلام- لمقتضى الحال: تخيُّر الوقت المناسب للموعظة دفعًا للسَّآمة والملل عن نفوس أصحابه، ويدلُّ على ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه لرجل طلب إليه أن يذكِّرهم كلَّ يوم" :أما إنه يمنعني من ذلك أنِّي أكره أن أُمِلَّكُم وإنِّي أتخوَّلكم بالموعظة كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يتخوَّلُنا بها مخافة السآمة علينا."[35]

ومنها :أنه كان - عليه الصَّلاة والسَّلام - يوصي كلَّ مخاطَبٍ بما يصلح لحاله، "إذ ليس من الحكمة أن توصي بحسن الخلق من يتحلَّى به، أو بطلب العلم من هو حريص عليه[36]"، ويظهر هذا في وصايا الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لأصحابه بما يحتاجه كلُّ واحدٍ منهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: أَوْصِنِى، قَالَ: "لاَ تَغْضَبْ"، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: "لاَ تَغْضَبْ".[37]

وذكر ابن حجر في شرح هذا الحديث قول بعض أهل العلم: "لعل السائل كان غضوبًا، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب".[38]

ومن كمال نفسه -عليه الصَّلاة والسَّلام- كان كمال حديثه وفصاحته وأسلوبه؛ "لأنَّ مجرى الأسلوب على الطَّبع، والطَّبع غالب مهما تشدَّد المرءُ وارتاض ومهما تثبَّت وبالغ في التحفُّظ".[39]

وكان حديثه -عليه الصَّلاة والسَّلام- متعدِّد الفنون "فمنه الحكم الجامعة القصيرة وهي التي تسمَّى جوامع الكلم، ومنه التَّمثيل والتَّقريب، ومنه الوصايا والأحكام، ومنه الخطب والكتب".[40]

أما حكمه الجامعة، أو جوامع كلمه، فهي "المقاطع القصيرة من الكلام المتَّسعة لمعانٍ كليَّة جامعة، تنبسط على جزئيات وأحداث كثيرة، في صياغة متينة من التَّعبير المشرق الأخَّاذ".[41]

ومن جوامع كلمه، ما رواه ابن عبَّاس -رضي الله عنه-: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يومًا، فقال: "يا غلام، إني أُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم

ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء، لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف".[42]

وقال: فهذه العبارات النَّبويَّة مطبوعةٌ بطابع الإيجاز "الذي يعده العرب سمة البلاغة وعنوان الفصاحة".[43]

وأما أمثلته المقرّبة، فهي في الأصل معانٍ توجيهيَّة مجرَّدة عرض لها الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- صورًا من المحسوسات تقرّبها إلى الأذهان، وتحفرها في أعماق الوجدان.[44]

ومن أمثلتها، قوله عليه الصلاة والسلام ":إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به "[45]إن تمثيل هذه المعاني المجرَّدة في صورة حسية كان أوفى بالغرض، وأكثر استمالة للنفس.[46]

وأما وصاياه وحكمه - عليه الصَّلاة والسَّلام -، فهي "فصول قصيرة من الكلام البليغ، يغلب أن تأتي في ثنايا الحوار، أو جوابًا عن سؤال[47]".وقد شرَّع رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -للمسلمين - جميعًا - الأسلوب الأمثل في كافَّة مناحي حياتهم بوحي من العليم الخبير.[48]

ومن أحاديثه في هذا الباب قوله - عليه الصلاة والسلام -: "اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسو الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات[49]"

ومن فنون قوله - عليه الصَّلاة والسَّلام- خطبه، وكانت مرتجلة كلَّها، ومنها الطِّوال والقصار، وبعضها وسط بين ذلك على حسب ما تقتضيه المواقف والمناسبات، وكانت متعددة الأغراض مستوعبة لجوانب الدَّعوة الإسلاميَّة، موجَّهة للمسلمين فيما يصلح أمور دينهم ودنياهم، وقد تميَّزت - أيضًا- بالأسلوب المحكم الرَّصين، وكانت مركَّزة على الغرض، مطبوعة بالإيجاز[50].

ومن خطبه –عليه الصَّلاة والسَّلام- قوله: "لا تكونوا ممن اختدعته العاجلة، وغرَّته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزَّوال، وشيكة الانتقال، إنه لم يبقَ من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب، أو صرِّ حالب، فعلام تفرحون، وماذا تنتظرون؟"[51].

ومن يتأمل هذه الخطبة يجد أن كل لفظة فيها إنما اتخذت موقعها من الكلام لخدمة غرض واحد لا تحيد عنه، فـ"أي بليغ يستطيع أن يحكم مثل القول في عقد بياني واحد، لا يخرج فيه عن الغرض الذي أنشئ لأجله؟ ولا يستعين على نسجه بصناعة غيره"[52]

وأما رسائله النبويَّة، فكانت مشاكلة لخطابته -عليه الصَّلاة والسَّلام- في كونهما بلا وزن ولا قافية، وقد يتشابهان في الألفاظ من جهة السُّهولة والعذوبة، وفي الفواصل، إذ لا فرق بينهما إلا أنَّ الخطبة تؤدَّى بصورة شفهيَّة، وتؤدَّى الرِّسالة بصورة مكتوبة. ويمكن أن تؤدَّى إحداهما بالأخرى بأيسر تكلفة؛ لما بينهما من التَّشابه في الغرض والموضوع؛ فكلاهما يتناول أمر الدِّين والسلطان.[53]

ولذا كانت موضوعات الرَّسائل النبويَّة في مدار الدَّعوة إلى الله، وما يدخل تحتها من العهود والمواثيق المبرمة بينه وبين فردٍ أو جماعة أو أمَّة كالفرس والروم ممن دُعوا إلى الإسلام فأبوا إلا دفع الجزية، ومن أبرز ما يميز مكاتباته - عليه الصَّلاة والسلام- استخدامه للأسلوب السهل في موضع السُّهولة، وذلك أن تكون الرِّسالة مرسلة إلى قومٍ من غير العرب، فيفهمها من يكون له أدنى معرفة بالعربيَّة، ومن ذلك مراسلته لعظيم الرِّوم هرقل.[54]

ويختلف الأسلوب حين تكون مراسلته -عليه الصَّلاة والسَّلام- لقومٍ من العرب تقتضي لغتهم الفخامة، "فمن علَّم الرَّسول الأمِّي ذلك الِّلسان الذي لم يقف على معرفته بواسطة كتاب أو معلم؟"[55]

هذا، وقد تميَّز البيان النَّبوي بخصائص عدة، منها: الإيجاز، وهي سمة ظاهرة في بيان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، والشواهد عليها كثيرة، منها: قوله -عليه الصلاة والسلام" :-البرُّ حُسنُ الخُلُقِ، والإثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكرِهْتَ أنْ يطَّلِعَ عَلَيهِ النَّاسُ"[56]

ومن خصائص بيانه -عليه الصَّلاة والسَّلام- جزالته ورقَّته، وهما خصيصتان مرتبطتان بالموضوع والغرض الذي يُساق من أجله الكلام. فمن جزالته، قوله - عليه الصلاة والسلام: "من ظَلَم من

الأرضِ شيئًا طُوِّقَهُ من سبعِ أرَضِين"[57]، فهنا تظهر القوَّة والإحكام؛ للتحذير من الظُّلم، وبيان شدَّة ما يُعاقب به الظالم.[58]

وأما رقَّته فما أكثر الأحاديث المشتملة عليها، ومنها قوله –عليه الصَّلاة والسَّلام-: "إنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا[59]"، وهنا "شاركت الاستعارة في الحديث في إبراز هذه الرِّقة، فبسط اليد عبارة عن التوسُّع في الجود والمنع عند اقتضاء الحكمة"[60]

ومما يتَّسم به البيان النبوي سهولته، وقصده، وبعده عن المبالغة والتكلُّف[61]، أو كما يقول الرافعي: "كأن الجملة تخلق في منطقه -صلى الله عليه وسلم- خلقًا سويًّا، أو هي تنزع من نفسه انتزاعًا[62]"، ولذا كان بيانه -عليه الصَّلاة والسَّلام- خالٍ من الزَّخارف والصِّناعة اللَّفظيَّة التي يتعمَّدها البلغاء بأنواع من البديع كالسَّجع والطباق وغيرها، إلا ما كان عفو البديهة، من وحي الفطرة دون تكلُّف أو تعمُّل[63]. وهذا شاهدٌ من بديع طباقه في قوله -عليه الصَّلاة والسَّلام: " اللهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا[64]".

هذا، وبلاغة الرسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- مما لا يحدُّه حدٌّ، ولا يحيط به من البشر أحد، "أما اللغة فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمنصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهبًا، وأبلغهم من الذكاء والإلهام، وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة، وتبصير الوحي وتأديب الله، وأمرٌ في الإنسان من فوق الإنسانية[65]".

الخاتمة:

و بعد الغوص في قطرة من بحر البلاغة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وجب الإشارة إلى بعض النقاط المستخلصة من هذا البحث:

- يزخر الحديث النبوي الشريف بالنكت و الإشارات اللطيفة التي تستخرج بعد عمق نظر و طول تدبر، وهي من دلائل معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.
- معظم النكت المتضمنة في بحثنا هذا لها مثيلاتها في مواضع أخرى من السنة النبوية، لكن لكلٍّ مدلولها المختلف.

- الباحث و المتأمل في النكت المتضمنة في الحديث النبوي الشريف تجعله يدرك عظم معجزة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الأمي، حيث لا تجد كلمة إلا ولها رونقا و جمالا في موضعها في الحديث، ولو غيرت ذهب سرها الذي كانت عليه في موضعها.
- البلاغة العربية جمعت أنواعا عديدة من محاسن الكلام و زادها الحديث النبوي الشريف زينة وجمالا و منحها اتساعا كبيرا.

و صلى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه وسلم. و آخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش وإحالات المقال

[1] الجاحظ، البيان والتبيين: تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، 221/2.
[2] نبيل راغب، موسوعة الإبداع الأدبي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 1996، ص 97.
[3] عبد القادر منصور و آخرون، موسوعة علوم القرءان، دار القلم العربي 2002، ص 213 .
[4] الكفوي أبو البقاء، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 312 .
[5] انظر لسان العرب.
[6] أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، ص 432.
[7] المرجع نفسه، ص 440.
[8] أبو حيان التوحيدي، البصائر و الذخائر، دار صادر، بيروت، 1988، ص 116.
[9] جلال الدين السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تح: أ. د محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 1، 2004، ص: 322.
[10] الكفوي، مرجع سابق، ص 342 .
[11] أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ص467 .
[12] جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص233 .
[13] عز الدين السيروان، معجم المعاني الجامع، دار العلم للملايين، بيروت، ص144.
[14] ابن منظور، لسان العرب، مادة نكت.
[15] الأحمد نكري، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000، ص355 .
[16] الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، مادة نكت.
[17] الكفوي، الكليات، ص 366 .
[18] حسين محمد زعطوط، النكت البلاغية : مفاهيم وآليات الآثر، كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، 2014، ص 122 .

[19] الكفوي، الكليات، ص 322 .
[20] حسين محمد زعطوط، النكت البلاغية : مفاهيم وآليات، ص 123.
[21] يُنظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة، ط9، دار الكتاب العربي، بيروت، 1393هـ، ص 284.
[22] يُنظر: الرافعي، مرجع سابق، ص 285.
[23] المرجع السابق، ص 285.
[24] يُنظر :المرجع السابق، ص 286.
[25] الشوكاني، فتح القدير، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء، د.م، د.ت، 2/ 443.
[26] يُنظر: محمد البوطي، في الحديث الشريف والبلاغة النبويَّة، دار الفكر، دمشق، 1432هـ، ص 45.
[27] المرجع نفسه، ص46.
[28] يُنظر: الرافعي، مرجع سابق، ص315، 316.
[29] المرجع نفسه، ص 275.
[30] يُنظر: الرافعي، المرجع السابق، ص296.
[31] الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق: عبده كوشك، مكتبة نظام يعقوبي الخاصة، المنامة، د.ت، ص146.
[32] صحيح البخاري، ح 3567، كتاب المناقب، باب صفة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1432هـ، ص627.
[33] الرافعي، مرجع سابق، ص290.
[34] يوسف عبدالله محمد العليوي، رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1428هـ، ص14.
[35] صحيح البخاري، ح70، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة، ص32.
[36] العليوي، مرجع سابق، ص37.
[37] صحيح البخاري، ح6116، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ص 1099.
[38] ابن حجر، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، 10/ 520.
[39] الرافعي، مرجع سابق، ص300.
[40] البوطي، مرجع سابق، ص57.
[41] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[42] الترمذي، الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، 4/ 284، 285.
[43] يُنظر: محمد الدبل، الخصائص الفنية في الأدب النبوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، د.ت، ص 10 و 11.
[44] يُنظر: البوطي، مرجع سابق، ص59.
[45] مسلم، الجامع الصحيح، ح2282، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النَّبي صلَّى الله عليه وسلَم من الهدى والعلم، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1431هـ، ص874.
[46] يُنظر: البوطي، مرجع سابق، ص68.
[47] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[48] يُنظر: الدبل، مرجع سابق، ص41.
[49] البخاري، مرجع سابق، ح6758، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ص 1218.
[50] الدبل، مرجع سابق، ص56.
[51] يحيى حمزة العلوي، الطراز، دار المقتطف، القاهرة، 1333هـ، ص 161.
[52] الدبل، مرجع سابق، ص58.
[53] يُنظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ، ص 136.
[54] الدبل، مرجع سابق، ص60.
[55] المرجع نفسه.
[56] صحيح مسلم، ح 2553، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البرّ والإثم، ص965.
[57] صحيح البخاري، ح2452، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، ص321.
[58] يُنظر: محمد الحمزاوي، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، مكتبة الرشد، د.م، 1428هـ، ص77.
[59] صحيح مسلم، ح2759، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة، ص 1030.
[60] الحمزاوي، مرجع سابق، ص81.
[61] الدبل، مرجع سابق، ص141.
[62] الرافعي، مرجع سابق، ص339.
[63] الدبل، مرجع سابق، ص144.
[64] الألباني، صحيح سنن أبي داود، ح3201، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت، مكتبة المعارف، الرياض، 1419هـ، 2/ 299، ص300.
[65] الرافعي، مرجع سابق، ص326.

قائمة المصادروالمراجع:

- صحيح البخاري، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1432هـ.
- صحيح مسلم، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1431هـ.
- الجامع الكبير، الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.
- صحيح سنن أبي داود، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، 1419هـ.
- لسان العرب لابن منظور.
- تاج العروس في جواهر القاموس، الزبيدي،
- الكليات، الكفوي أبو البقاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- معجم الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.
- البيان والتبيين، الجاحظ،، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، د.ت.
- مفتاح العلوم، أبي بكر السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.

- موسوعة الإبداع الأدبي، نبيل راغب، مكتبة ناشرون، ط1، لبنان، 1996م.
- موسوعة علوم القرءان، عبد القادر منصور و آخرون، دار القلم العربي، د.م، 2002م.
- البصائر و الذخائر، أبو حيان التوحيدي، دار صادر، بيروت، 1988م.
- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، ط 1، القاهرة، 2004م.
- معجم المعاني الجامع، عز الدين السيروان، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الأحمد نكري، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة، الرافعي، دار الكتاب العربي، ط9، بيروت، 1393هـ.
- فتح القدير، الشوكاني، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الوفاء، د.م، د.ت.
- فتح الباري، ابن حجر، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.
- في الحديث الشريف والبلاغة النبويَّة، محمد البوطي، دار الفكر، دمشق، 1432هـ.
- الشمائل المحمدية، الترمذي، تحقيق: عبده كوشك، مكتبة نظام يعقوبي الخاصة، المنامة، د.ت.
- الطراز، يحيى حمزة العلوي، دار المقتطف، القاهرة، 1333هـ.
- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419هـ.
- الخصائص البلاغية للبيان النبوي، محمد الحمزاوي، مكتبة الرشد، د.م، 1428هـ.
- الخصائص الفنية في الأدب النبوي، محمد الدبل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، د.ت.
- النكت البلاغية : مفاهيم وآليات الأثر، حسين محمد زعطوط، كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، 2014م.
- رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية، يوسف عبدالله محمد العليوي، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1428هـ.